عام

السؤال المعرفي أنطولوجيًا

الذات، العالَم، اللّه: إعادة تأويل الوجود

معاذ بني عامر

باحث أردني

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

ما هي الأشياء التي يجبُ على المرء أن يعرفها، لكي يصل إلى الحدِّ الأقصى من المعرفة؟

مثلاً: هل معرفة أنَّ الحديد يصدأ، وأنَّ الشمس تُشرقُ من جهةِ الشرق تفي بالغرض؟. أم معارف من نوع: أنَّ مجموع زوايا المثلث تُساوي زاويتين قائمتين؛ أم إنَّ الموت علامة فارقة بالنسبة لحياة الكائن البشري على الإطلاق؟.

هل معادلة من نوع: 2 + 2 = 4 تُقدِّم حلاً مِنْ نوعٍ ما لإشكال نظرية المعرفة خارج حدودها كمعادلةٍ رياضية؟.

قد يبرز هَاهُنا سؤال مُغاير: أي الأشياء تلكَ التي يتوجب علينا ألا نعرفها؟.

هل يتوجب علينا ألا نعرف الجهات الأربع: الشمال، الجنوب، الشرق والغرب؟. هل هو موضوع ذا أهمية أن لا أعرف أنّي كائن أصحو وأنام، أعطش وأشرب، أتعب وأستريح، أجوع وآكل؛ وهكذا؟.

أيًا كانت صيغة السؤال، نفيًا أو إثباتًا، فالغاية واحدة، إذ إلى أي حدٍّ يمكن للكائن البشري أن يعرف أو بالحرّي تصل معرفته، بصرفِ النظر عن كَمِّ معارفه، على اعتبار أن عدم الكمال المعرفي هو طابع طبع الوجود الإنساني طرًّا؟.

هل بالإمكان تجاوز حالة التشيؤ إلى حالةٍ معرفية خالصة، يشعر المرء إزاءها بأنهُ قد وصل إلى حالةِ خلاص معرفي، فيما يتعلق بمنظومة وجوده ككل؟.

ما الذي يمكن أن يحدث للذات العارفة أنطولوجيًا في حال عرفت؟.

هل ثمةَ معارف يمكن أن تقف عليها حياة الذات، ويصبح وضعها كذاتٍ عارفة أو غير عارفة على المِحكّ؟.

سأطرح الموضوع على النحو التالي: فرضاً، أردتُ أن أكتب كتاباً حولَ السماء، ما الذي يتوجب عليَّ أنا ككاتب أن أعرفه لكي يكون كتابي عن السماء كتاباً جامعاً مانعاً، ويُحقق بالأساس شرطه المعرفي عند حدوده القصوى؛ حيث لا يكون كتابي كتاباً تافهاً وينضح بالهراء، ويكون بالفعل كتاباً عن السماء، وليس كتاباً عن المشمش؟

هل يتوجب عليَّ أن أعرف بُعد السماء عن الأرض، وحركة النجوم والكواكب والمجرات، وعن طبقات الجو العليا والسفلى، وعن الغبار الكوني ... الخ؟ وهل يجب عليَّ أن أكتفي بالمسار المعرفي للسماء كمنظومة

معارف أولاً وأخيراً، أم يتوجب عليَّ أن أُعَرّج على الناحية الجمالية للسماء: شروق الشمس على بحر المهدية في تونس، وغروبها – مثلاً – في مدينة جدارا التاريخية؛ مراقبة نجوم الليل في ودي القمر في منطقة رم، وهل أورِد ما قاله الشعراء من شِعر عن السماء؟

هل يتوجب عليَّ دراسة علم الفلك والفيزياء والشِعر العالمي، أم أكتفي بملاحظاتي الخاصة –الناتجة عن حالة تأملية بالدرجة الأولى– وأنا أكتب فصول كتابي؟

هل أرتكبُ خيانةً من نوعٍ ما في حال أنَّي لم أفِ الموضوع إياه حقاً معرفياً، لكي تكون الصورة التي سأنقلها للقارئ صورة مُتكاملة وتفي بالغرض، ويشعر معها أنه يقرأ كتاباً عن السماء وليسَ كتاباً عن المشمش كما أسلفت؟

سأُمَنْهِج: "س" – ككائن بشري – وليكن تاريخ ولادته: 13 / شباط / 1956، ولنفترض أنه سيموت يوم: 18 / تموز / 2012. ما هو كم المعارف التي حصلّها أثناء حياته، وما نوعيتها؟.

سأفترض افتراضاً لاحقاً للافتراض الأول، يفترض أنَّ "س" –هذا الكائن البشري– كانَ (نجَّاراً)، وبناء عليه، سأحاول تقديم ريبورتاج تقريبي لما عرفه من يوم ولادته وحتى يوم موته.

ولأنه ريبورتاج تقريبي، فإني لن أدخل في تفصيلات لا تخدم مسار ما أنا بصدده؛ فقط سأعرض لما يمكن أن يفي بالغرض، ولنبدأ من يوم تعلّمه لمهنة النجارة: لا بُدَّ أنهُ تعلَّم النجارة لدى مُعَلِّم، وما لجوؤه إلى هذا المُعلِّم إلا لأنهُ لا يعرف شيئاً عن مهنة النجارة، وعن طريق هذا المُعلّم يُريد أن يُلِمَّ بموضوع النجارة من جميع جوانبه؛ أي أنه يُريد أن يعرف كل شيء لكي يبدأ بشقِّ طريقه لوحده وتأمين مصدرٍ لرزقه!

وفي رحلة تعلّمه لا بد أنهُ تعرَّف على أنواع الخشب، وما يمتاز به كل نوع على حساب الأنواع الأخرى، وأيها أنسب لصنع باب أكثر من الأخرى. ولابد أنه تعرف إلى الآلات التي يتوجب عليه التعامل معها أثناء صناعة باب خشبي أو سرير أو صندوق أو أية قطعة خشبية أخرى.

ولكي يكون هذا الريبورتاج ريبورتاجاً مُحكما، فإني سأتساءل ما هي الأدوات والأشياء التي يجب على النجّار أن يتعامل معها لكي يُتقن حرفته كنجّار يُعتَدُّ بصناعته ويُشار إليها بالبنان؟.

سأجتهد فيما يحتاجه النجّار على سبيل التقريب:

محل لفتح المِنجرة وممارسة مهنة النِجارة، وما يستتبع ذلكَ من أدوات مهمة لبدء العمل، من مناشير لقص الخشب وغِراء ومسامير وشاكوش وورق لأخذ قياسات...الخ.

هُنا يستلزمُ الأمر بعض التوضيح: هل يجب على النجّار أن يُلِمَّ بكل شيء حولَ الأشياء التـي يستخدمهـا – مكوناتها الأساسية- حتى يتمكن من إتقان عمله على الوجه الأمثل؛ أي هل يتوجب عليه أن يعرف مكونات الغِراء الأساسية –قبل أن تصبح مادة لاصقة– لكي يتمكن من صناعة باب أو خزانة على الوجه الأكمل، وهل يجب عليه أن يتعرف على مكونات المنشار – المواد الخام التي شكلّت خميرة هذه المنشار – لكي يُنجز أعماله بشكلٍ طيب؟

هُنا ينفتحُ المِغلاق المعرفي على مصراعيه في وجهِ الذات، ويفضح استعدادَ الكائن البشري للمعرفةِ على الإطلاق. فالمعرفة بملبوسها الأنطولوجي قد تُدمِّر حيوات الإنسان وتفتُّ في عضدِ وجوده أساساً. فبالصيغة العيانية للكائن البشري، توضّعاته في الزمن والمكان وإحداثية وجوده بصيغها المعمول بها أزلاً، تستغلقُ المعرفة بصيغها الإطلاقية على هذا الفناء الآدمي. فذاكَ الكَمُّ الهائلُ من المعارف[1] يستغلق (كَمًّا) على الذات الفردية؛ فأيّ ذات ليست لديها القدرة على الإلمام بهذا الكم الهائل من المعارف خلال فترة تواجدها في الزمن والمكان حتى لو أمكنَ لها أن تتواجد في العالَم منذ الأزل وحتى الأبد. فرضاً تواجدت منذ الأزل وحتى الأبد، هل لها القدرة على الإلمام بمعارف حول علم الغابات كما هي مُلمة بمعارف حول زراعة البطاطا مثلاً – على أساس أنها تزرع البطاطا وخبيرة في هذا النوع من الزراعات - ؟. وهل لها إلمام كُلّي بكل شيء على الإطلاق؟.

قطعاً، لا.

ولكن أليسَ من حَلٍّ لهذا الإشكال المعرفي، فيما يتعلق بـِ "الذات" أنطولوجيًا؟

سأقدِّم مُدْخلتين للتقريب والتوضيح، ومن ثم سأعودُ إلى موضوعتي الرئيسة:

<u>الأولى: الإنسان المطلق.</u>

<u>الثانية: نوع المعرفة.</u>

المُدْخلة الأولى: الإنسان المطلق.[2]

أخذَ الإنسانُ على عاتقهِ مسألة رأب الصدع، الذي أحدثه مُذْ وجد؛ فلقد فُقدت الصيغة المبدئية لحالته الوجودية البِكر، وها هو يُعيد – يقيناً أنني أمنح الفعل المضارع "يُعيد" صيغة إطلاقية - بناء ما دمرّه.

ولقد أخذت صيغة البناء بُعداً أزلياً منذ البداية، لناحية محاكاتها لفعل الزمن ابتداء؛ فمع شعور الكائن البشري المبدئي بفداحة ما أقدمَ عليه، أخذَ فوراً وشرعَ أزلاً، في رأب الصدع. ولكأنّ ثمةَ حالة مبدئية، كانَ لا بُدَّ لها من الوجود، كردِ فعلٍ وجودي على حالةِ خرقِ الوجود ابتداء.

وهذا التدارك الفوري، لحالة الخرق الوجودي عبر التئام وجودي، لم يكن ثمةَ مناص من استحداثه أزلاً، لكي لا يتلف الكائن البشري وينعدم؛ فهي بالمحصلة عملية ردم وجودي لهوةِ الوجود الأساسية، بالكائن البشري وعبر الكائن البشري.

ونتيجة لهذا الخطأ الكارثي وما نتج عنه من استدراك لهذا الخطأ ومحاولة معالجته، أعني نتيجةً لنتيجة النتيجة، وجبَ على الكائن البشري أنْ يُوجد في الزمن والمكان عبر الفعل التاريخي. وليسَ أكثر مدعاة للسخرية من أن الوجود العياني المحكوم بقانون الزمن والمكان، هو وجود لا داعي له، على أساس قهريته وإفضائه لحالةٍ من اللاجدوى الكلية. فهذا التوّجه الشوفيني، جزء من السياق البشري العياني المحمول على متنٍ إصلاحي لحالةِ الخرق الوجودي.

فَعبر هذا العيان الوجودي، كانَ لا بُدَّ لهذا الكائن – وابتداء من الآن سأشرع بترتيب طروحاتي لغايات إجرائية – أن يتشيأ في الزمن والمكان، وأي توّجه غير هذا كان من الممكن أن يقضي على الكائن البشري مرة واحدة وإلى الأبد. فعبر تشيئه صارَ أكثر قدرة على التعامل مع أبجديات عالمه الجديد، فذاكَ الكائن الكلّي، النهائي، المطلق، الأوحد، لم يعد له ثمة وجود.

وكاستحقاق لحالة الخرق البنيوي لحالة الوجود المبدئية، وجبَ القهر بالتشيؤ، فذاكَ الوجود المطلق لكائنٍ بشري كلّي -المحكوم بالكل- لم يعد له وجود الآن – مرة أخرى، أمنح مفردة " الآن "صبغة إطلاقية- وما هو موجود هنا والآن، في الزمن والمكان، هو "أ" و"ب" و"ج" و"د"...الخ؛ فالتفاصيل اللانهائية لزمَ لها كل هذه العناصر، فامتداد الزمن ولانهائية المكان، أفقدت الكائن المبدئي قدرته كشخص أوحد، على إعادة ردم هوة الوجود الأساسية.

لا بُدَّ من "أ" و"ب" و"ج" و"د"، لكي يلتئم العيان البشري وينسجم مع طروحات كبرى في هذا الوجود. فشخص واحد لا يمكن له أن يتمثل حالة الخلاص الكلّي عبر كل الزمن والمكان التاريخيين[3] ويُمسرح طقوسهما هنا والآن. صحيح أن بذرة الكائن المطلق موجودة بين ثنايا كل واحد، ولكن قطعا، ليس في حالة نضوج وليس على حالتها المبدئية، فهي موزعة بين "أ" و"ب" و"ج"...إلخ.

فالبذرة الأساسية تشظت، وانتقل جزء من محتواها الأساسي لكل كائن بشري على حدة، فهي مُوزعة بين الكائنات البشرية. وليس لكائنٍ أن يدّعي أنهُ أكثر خصوصية من غيره بهذا الشأن –صحيح أن البعض أكثر حساسية تجاه هذه البذرة من غيره – ولكني أحجم عن الخوض في هذه الجزئية هاهُنا لأعودَ لها لاحقاً- فكل كائن لديه شيء من تلك البذرة المطلقة.

وليسَ من أن الوجود البشري، أكثر من مجرد محاولة لِلملمةِ محتويات هذه البذرة عبر الزمن كلّه؛ فهو يكافح من أجل الخروج من حالة التيه إلى منطقة الأمان، عبر العيان البشري كلّه، مستخدما كترسانة قتالية في هذا المجال كل العنصر البشري من أول الوجود وحتى آخره.

وبالفعل بدأ النشاط البشري دأباً على ردم هوة وجوده المبدئية، فتحولت البشرية منذ الأزل، إلى حفل البارانويا الوجودي؛ فالحمية دبّت في الكل وإنْ بدرجاتٍ متفاوتة، إزاء فظاعة ما أقدم عليه الكائن البشري بوعي أو بدون وعي. وصارت هذه الحمية ميزة كبرى، ستطبع مسيرة الكائن البشري بطابع هستيري أبداً؛ فهو مُنتهِكٌ –أعني لحالة الوجود البِكر- لذا ثمة تفويض بضرورة استدراك الوقت في تطبيب الجرح البشري إزاء محنة وجوده الكبرى.

وليس أدل على ذلك من حالة الوجود ذاتها، فهي بمثابة دفقة شوفينية مُغرقة في وجوديتها التكفيرية، استدراكا لحالةِ الهتك المبدئي لغلالةِ الخلق الأول.

ولكم أسعد هذا الكائن – وإن كانَ ثمة شقاءٌ أبدي – أنْ يتجشم عناءَ وجوده التكفيري، ليسَ لغايةِ الشقاء ذاته، إنما لستر عيبهِ المبدئي. فهو يستعيد عبرَ هذا الشقاء المتموضع في الزمن والمكان، حالته الكونية كوجودٍ خالص يستنهض الخالد واللانهائي فيه.

وهذا يقينا، لا ينفِ وجود بذرة الخالد واللانهائي في الكائن البشري، وإنْ كان ثمة تموضع في الزمن والمكان. فذاك الطيف السماوي لا ينفكّ يتهادى خبباً – كاستحقاق ضمني- فوقَ طيننا الأرضي، يؤشر لنا -نحن الكائنات الفانية- أننا خالدون ولا نهائيون على نحو ما، وإنْ كُنَّا محكومون أساساً بالفناء والتلاشي والانعدام.

وكمحاكاة لبذرة الخالد فينا هذه، شرعنا، نحن الكائنات البشرية، رحلة استعادة خلودنا عبر وجودنا هنا والآن، في الزمن والمكان، محكومين بعدميتنا. وكأننا أُخرِجنا من الباب، وها نحن نعود - ويا للفاجعة- من النافذة، مخفورين بوجود قاسٍ ودامٍ، تجشمنا عناء مَسرحته في الزمنِ والمكان ألماً.

إذن، ثمةَ حالة من الوجود الخالص، تَمَّ انتهاكها من قبل الكائن البشري. ولستُ أجزم إنْ كانت هذه المأثرة هي أكبر حماقات هذا الكائن عبر وجوده كلّه أم أكثر إشراقاته نبوءة ودموية. وكلاحقٍ لما تقدّم، تحطمت وثنية الإنسان إزاء ذاته، وفي نوبةِ جوعٍ كوني شرعَ بأكل إسمنت صنمه، فقد وُجدَ في الزمن والمكان.

ولكأني بنا - ورثة هذا الإرث الدامي - نقفُ على ناصيةِ وجود أصيل، نتحسر على فردوسنا الحاضر الغائب، وليسَ مِنْ شيءٍ –هَا هُنا– سوى الإمعان في معمعة وجودنا العياني والشرب من دمه الدافق.

وبناء على وجوده ضمن تضليعة الزمن والمكان، بدأت رحلة وجوده التكفيرية عن خطيئة أصيلة، مُتَيقناً، رغم مأساوية الطابع الذي طُبعَ به وجوده، مِنْ أنْ ثمةَ بذرة خالدة بين جنبيه، لا سبيل إلى إحيائها وبث الحياة فيها من جديد، سوى بالكفاح النشط والدؤوب على هذه الأرض، عبر كل المجموع البشري من أول الزمن إلى آخره، مستنفراً كل مخزونه المادي والعقلي والروحي للخروجِ من شرنقةِ العيان هذه.

ولأني وصلتُ إلى هذا الحد، فإني مضطرٌ للحديثِ عن مفردةٍ أساسيةٍ من مفردات طرحي الرئيس، كنتُ قد أرجأتها إلى الآن لعلمي بضرورة وجودها ضمن هذا السياق هَاهُنا. وفي حديثي عن هذهِ المفردة، أقطعُ بيقيني أني أسهم ولو بجزءٍ يسيرٍ من إماطة اللثام عن محنتنا الوجودية، ليسَ لناحيةِ أنني أسهّل مهمة فك الإشكال أو التعبئة العامة لغزو منطقته، إنما في التشريع لحالة هي أقرب إلى ترتيب هذه الفوضى، وإسباغ شيء من الشفافية الذهنية عليها لتغدو أكثر صقلاً وجلاءً ودفقاً في توضيح بعد الوجود المأتمي. ولكي لا أدخل الآن في حالةٍ من التشويش العقلي، فإني مضطرٌ لكي أسوق مفردتي آنفة الذكر، إلى ترتيب ما ذُكر آنفا، ليتسنى لطرحي أن يكون مُنمنماً ضمن توليفتهِ الفسيفسائية.

ثمة وجود أصيل خُرقَ أزلاً، من قبل كائن بائس يُسمّى بالكائن البشري، حُكمَ عليه –نتيجة لخطيئة خَرقِه– بالتكفير عن خطيئته أبداً، ولم يكن ثمة مناص من وجودهِ عياناً ضمن زمن ومكان ما، على أساس تشظّي مادته الخالدة هنا والآن، محمولة على متنِ الكائن البشري.

فعبر هذا الكائن يُعاد تشكيل الوجود الأساس، ضمن توليفة متكاملة يُشارك بها كل الجنس البشري من أول الوجود إلى آخره. وبالفعل بدأت هذه التظاهرة البشرية أزلا، وستستمر أبداً. وبفعل هذا الشروع انفصمت عُرى الكائن البشري المطلق، وتشيّأت عبر الفعل التاريخي، وتشتتت بذرته

الخالدة بيننا نحن الكائنات البشرية، فكان ثمة إنسان قديس وآخر فاجر؛ واحد نبي، والآخر عربيد، شخص نجار، وثانٍ مفكّر. شخص تُهدّمه مأساوية الحياة فيشرد ناسكاً في الصحراء القاحلة بحثاً عن ذاته، وآخر يتهتك مجوناً في مواخير الليل.

لكن مفردتي هذه، لا تستوجب نوعاً من التهالك في الحكم على ما هو أساسي، لناحية أنّ لدى هذا الناسك نصيباً أوفى من تلك البذرة الخالدة، أكثر وأوفى مما لدى ذلك المتهتك الذي يقضي حياته في حالة فجور. يقيناً ذلكَ ليسَ في نيتي، ولستُ أعبأ به إطلاقاً. فما هو أساسي هو أساسي وحسب. وليس لناسك فضل على فاجر في ما هو أساسي، فكلاهما فيه من تلك البذرة، وتتساوى مسؤوليتهما بالتمام فيما يتعلق بالتكفير عن الخطيئة الأصلية، مع فارق رئيس بين هذا وذاك، تتمثل ((مرة أخرى، ليسَ ثمة حكم قيمة أطلقه هَاهُنا)) في حساسية أحدهما تجاه محنة الوجود، وبَلادة الآخر، أعني وعي أحدهما للبذرة التي يحملها بين جنبيه والمكنة العالية في التعامل مع هذه البذرة، في حين أنّ الآخر، يُفرّط تفريطاً بهذهِ البذرة ويطمس عليها.

وكلازمةٍ إجرائية لمقتضيات مفردتي آنفة الذكر، فإني أشير في هذا المجال إلى أنّ تشظّي الإنسان المطلق عبر الفعل التاريخي، هنا والآن، على هيئة إنسان متعدد العيانات خفّفَ من وطأة الحمل المُلقى على كاهل الإنسان.

وبالفعل فقد تشظّى الإنسان الكلّي، فَوُجِدَ "س" و"ص" و"علي" و"جورج" و"فرجينيا" و"خوليو" و"زليخة" و"آزر" و"يعقوب" و"آدم" و"حواء" ...الخ. واستكمالا لطقس الوجود هذا، فقد شرعَ بنو البشر بحفلةِ الوجود هذه، محمومين بنزعةٍ هستيرية للخلاصِ من هذهِ المحنة الشائكة، في وقت قياسي وبأقل الخسائر. ولكن ليس للمرء كل ما يتمنى، وبالذات لم يكن لنا نحن بني البشر كل ما تمنيناه، أعني بشأن الزمن والخسائر. بل كان لا بُدَّ لنا من أن نتجشّم عناء الوجود كما هو وبالطريقة التي لربما لم ترق للكثيرين، فها نحنُ موجودون أزلاً، ولا مناص للإكمال أبداً.

المُدْخلة الثانية: نوع المعرفة

مع استحالة – على الذات الإنسانية- الإحاطة بِكَمِّ المعارف الهائل الموجود في العالَم، ومع الحاجة إلى فَكِّ إشكال الوجود معرفياً، فقد وجب على الذات نفسها أنْ تجدَ مخرجاً من هذه الورطة القاتلة. ولكي أكون دقيقاً، فإني أفترضُ ابتداءً أن نوعية المعرفة يمكن بوتقتها في (ثلاثة محاور)، وعلى كل محور سأضربُ بعض الأمثلة التوضيحية التقريبية:

المحور الأول: الله(*)

الله بصفتهِ قوة لا نهائيـة، ماتحـةٌ سرمداً، ألَّبَّت الذات البشرية، وأقضَّت مضجع روحها أزلاً وهـي تبحثُ عنها وعن أسرارها (وليس كما تُمَوْضَع الآن في الذهنيـة الإسلامية بطريقةٍ ساذجة ومُهينـة ليس فقط للذات الإلهية إنما أيضاً للذات الإنسانية المُتخيلة، بطريقة تفضح خيار الذات في التعامل مع إشكال وجودي أُسِّي). وإذا كانَ لنا أن نعمل جردًا لمجريات التاريخ البشري، فهو بطريقة أو بأخرى تاريخ الله في العالَم كما تراه الذات البشرية(**) على إطلاقها وبجميع تشعباتها ومنطلقاتها، سواء أكانت رفضاً أو قبولاً. وسواء أتت هذه المعارف من الله – وحياً يُوحى– وقبلها البعض، أو أبدعها بشرٌ - كتجلٍّ لعقل عظيم - ولاقت قبولاً أو رفضاً كذلك.

ولكن أيمكن للمرء أن يتصفح تاريخاً مُدوناً في ملايين المراجع والكتب والوثائق حول الله؟ بتاتاً، لا! فهذا مما يُشْكِلُ على أيِّ كان. وإزاء هذا الكم المستحيل يصيرُ للنوعية مجالٌ أرحب، من حيث تمثّل الله كقوةٍ هائلة لا حدودَ لها كإلهٍ فاعل على الإطلاق، لا نهائي، سرمدي، مُتجاوز لحالة الأذهان والقلوب، وإنْ كانَ يتوضّع فيهما من حيث تنامي هذه القوة اللانهائية في الذات، وقدرة الذات على تمثّل هذه القوة الهائلة داخلها ساعة تجترح الحياة وتُعمل العقل فعلاً وإبداعاً في منظومة الوجود الكبيرة.

وإذا كان من مثال تقريبي حول هذا الموضوع، فإني أسوق مقولة لـِ "موريس كلافيل" مفادها:

"الله هو الله ؛ فَهَلَّا فهمت"!.(4)

وكذلك أبيات الحلّاج:

رأيتُ ربِّــي بعينِ قلـــبِ	فَقُلْتُ مَنْ أنـتَ قالَ أنـتَ
فليسَ للأيـــن منــك أينٌ	وليـس أين بحيـثُ أنـــت
وليـسَ للوهـــم منك وهمٌ	فيعلم الوهـم أيـــن أنـت
أنتَ الذي حُزْتَ كل أيـن	بنحـو لا أيـنَ فأينَ أنـتَ
وفــي فنائـي فنا فنائـــي	وفي فنائـي وجدتُ أنـتَ(5)(5أ)

فهذا المثال - سواء في مقولة كلافيل وأبيات الحلاج - التقريبي يُقارب حقيقتين: الأولى مُتعلقة بـِ "الذات الإلهيـة" لناحيـة أنهـا ذات مُطْلَقـة، سـرمدية، لا نهائيـة، لا تُقـارَب إنسـياً إلا بمقـدارٍ يُسـتنزف أبـداً، وإطلاقـاً سَيُستَنْزَف!. والحقيقة الثانية مُتعلقة بـِ "الذات البشرية" لناحيـة تجريديتها، عوضـاً عن وجودها العيـاني؛ فهي

ذات ببُعدٍ ميتافيزيقي، لاهوتي، عِوضاً عن بُعدها الطبيعي المُتعين، الناسوتي. وهاتان الحقيقتان تُفضيان إلى ما هو أصيلٌ بالنسبة للذات البشرية من حيث امتلائها بِـ (كُلٍّ) أو بـِ (أُسٍّ) لا نهائي. فالكائنُ الصغير، المُتناهي، وعندما يؤمنُ بكائنٍ صغير ومُتناهٍ، فإنهُ يبقى صغيراً وفي نهاية المطاف يتناهى وينعدم. أما الكائن الصغير، المُتناهي الذي يؤمنُ بكائن كبير وغير مُتناهٍ، فإنهُ يصيرُ كائناً كبيراً ولا يتناهى؛ يصيرُ كُلَّاً؛ يصيرُ كُلَّاً عبر نزوحه اللانهائي ناحية مركز جذب سرمدي، فذاك النهر العظيم لا يفتأ يفيضُ إطلاقاً. باختصار، إنهُ يخرج من إسار توضعّاته في الزمن والمكان ناحية عالَم أرحب وأملأ، ويمتلئ بقوةٍ عاتية تُعينه على إحداث تقدّم جوهري في منظومة الحياة، والدفع قدماً ناحية إمكانات جديدة.

المحور الثاني: الذات

الذات بصفتها حاوية لِـ (مُدخلات) و(مُخرجات) هذا الوجود. فـ "الوعي –على ما يقول فريد آلان وولف- يعني الانتباه، والانتباه الأول يتجه إلى فكرة (أنا أكون). وعندما يتحسَّس هذه الـ (أنا) يعلم الراصد أن (أناه) ليست إصبعه ولا قدمه".[6]

فمعارف الذات حول نفسها لممَّا يُحقِّق شرطها الوجودي بالدرجة الأولى، من حيث هي ذات واعية ولديها القدرة على الابتكار والاجتراح ومناهزة المستحيلات، لناحية أنّ وجودها هي وجود أقنومي أساساً يتنامى إطلاقاً في علاقته بِـ "الله" و"العالَم".

يقول هيبوليتوس:

"تخلَّ عن البحث عن الله والخلق والمسائل الأخرى المشابهة.

ابحث عنهُ بجعلِ نفسك نقطة البداية.تعرَف مَنْ الذي في داخلك،

يجعل كل شيء ملكه، ويقول: ربِّي، عقلي، فكري، روحي، جسدي.

تعلّم مصادر الحزن، السعادة، والحب والكراهية.

تعلَّم كيفَ يحدث الأمر، أن يراقب المرء دون إرادة.

ويُحبّ دون رغبة. إنْ تتحرى هذه الأمور بدقةٍ، فإنك ستجدها في نفسك".[7]

وأعتقد أن المفاهيم الكبرى هي حجر الرحى بالنسبةِ للذات، كمعارف نوعية تُؤكّد حضور الذات في العالَم كذاتٍ فاعلة؛ فهي – أعني الذات – بحاجةٍ إلى الإلمام بما هو أصيل وخالد، بالنسبةِ للأساسات المفاهيمية كالحُبِّ والخير والحق والجمال؛ إذ يصيرُ الحضور في الزمن والمكان حضوراً تأكيدياً وجودياً، عبر آليات معرفية تنفتحُ على خيارات ظاهرية وباطنية، تُؤكد هذا الحضور وتدفع بالذات ناحية التفاعل الإيجابي مع عناصر الكون على اختلافها، مما تحت الذرة إلى ما فوق المجرة، في سبيل تحقيق نوع من التصالح الكوني بينَ (الذات) و(الله) و(العالَم)؛ حيث يُصار إلى تأكيد معرفتها أنطولوجياً من حيث هي قوة هائلة تتفاعل ويُتفَاعل معها. وعبر هذا الميكانيزم المزدوج يتم حضورها على أكمل وجه، من حيث هي مُلِمةٌ بالأساسات التي تجمع في جِرابها الداخلي كل عناصر الكون معرفياً، وإنْ كان (كَمّ المعارف) الهائل يستعصي عليها منهجياً. فتلك الأساسات هي بمثابة الروافد الأصيلة التي تصبُّ في بحر الذات العظيم، إذ تشعر هذه الذات بحالةٍ من الصفاء والامتلاء المُتجَذِّر في الداخل، والمُمتد إلى الخارج! فمن جهةٍ هي تتمظهر خارجياً بعمارة الكون وفتح آفاق جديدة لرؤى داخلية عميقة؛ ومن جهة ثانية تنتشي داخلياً بغبطةٍ مقدّسة ساعة تتمظهر وتتجلّى، لأنَّ القوة الهائلة التي تدفعها إلى اجتراح المعجزات قوة كبيرة ومتنامية بشكل لا نهائي، بما يقطع الطريق على أي محدودية يمكن أن تسم الوجود البشري هُنا والآن، فالتنامي الذاتوي علاقة اندماجية مع الكون والإبداع الإنساني فيه، هو تمظهر إلهي أو بالأحرى استحضار هائل للقوة اللانهائية في الكائن الإنساني. والذات إذ تُبدع في هذا الوجود، فهي تُبدع من منطلق تنامٍ لا نهائي، وليس من منطلق ثابت ونهائي بما يفضي إلى اعتبار الذات الإنسانية ذاتاً مُتآكلة وفانية ومعدومة، فالقوة الدافعة لإبداعاتها قوة خالدة وإن تمظهرت لبعض الوقت فناءً وعدم اكتمال.

المحور الثالث: العالَم

مِنْ مراقبة زهرةٍ للتو تبرعمت على طرف نهر النيل العظيم، إلى تأمّل القمر -في ليلة من ليالي الصيف- من صحراء الربع الخالي، ومن بيتِ شِعرٍ تُبدعه نَفْسٌ مُعذَّبة في أرض بعيدة ونائية إلى نَفس تأبى أن تُؤذي نملة تجمع طعامها لتودعه بيتها الصغير في شارع من شوارع دمشق القديمة. فكل عناصر الكون من زهر ونمل ووحوش ونجوم وكواكب وأنهار وبحار وبشر وحجر وأشجار وبهائم ومجرات وجمادات ...الخ. كل هذي العناصر إذ تدخل الذات في علاقة حبّ حميمية معها -علاقة تواؤم وانسجام ومحبة- تصيرُ مَالِكةً لناصية علاقتها بهذا الكون الشاسع.

فأبيات الشاعر "تركي عبد الغني":

خَمْسونَ دَهْراً وَراءَ ظِلِّ أبي

واللَاتُ والعُزّى من إلاهاتي

كأنّها النطفَة التي سَكَنَتْ

أقاصِي الظلِّ في متاهاتي

فانفَلَتَ الكَوْنُ مِن يَدي .. وَأنا

ما زلْتُ أخشى مِنْ انفِلاتاتي

مَعْذِرَةَ الرَّبِّ .. إنّها لُغَتي

وَصيغةُ الحُبِّ بانْزياحاتي

فإنّما المُستحيلُ غايَتُه

فِيَّ.. وَفي المُسْتَحيلِ غاياتي

سَأُسْمِعُ اللّيْلَ أنّ لي حُلماً

رَصيفُهُ .. أوَّلُ السماواتِ

وَأخْبرُ الحُلْمَ أنّ لي طُرُقاً

أوّلُها .. آخِرُ النّهاياتِ

وَأشْهِدُ الْكَوْنَ أنّ لي وَطَناً

تاريخُهُ الأمْسُ والغَدُ الآتي

فَأزْرَعُ الدَّهْرَ في عَباءتِهِ

وَأنْفُضُ الدَّهْرَ عَنْ عباءاتي

وَأسْكِرُ الْخَمْرَ في مُعاقَرَتي

وَأعْجِزُ الشِّعْرَ في مُجاراتي

وَأشْرِكُ الحُبَّ في عِبادَتِهِ

وَأفْتَحُ النّصْرَ لانْكِساراتي

فَأوقِفُ الخَوْفَ عَنْ مُطارَحَتي

وَأشْغِلُ المَوْتَ عَنْ مُلاقاتي.[8]

أو كـَ أبيات وردزورث:

"لقد شعرتُ

بحضورٍ يُزعجُ متعتي

حضور لأفكار عالية، لإحساسٍ بالجلال،

بشيء مبثوث بعمق، مستقر هو ضوء الشمس،

و المحيط، والهواء الحي، والسماء الزرقاء، وروح الإنسان،

حركة وروح تدفع ...

جميع الأشياء المفكرة، جميع الموضوعات من كل فكر،

ويسافر في جميع الأشياء".[9]

فـَ (العالَم): هذا المدى المفتوح سُخِرَّ لـِ "الذات البشرية" من قبل (الله) من أجل فهم (الذات) وبالتالي (الله)، مُستخدمةً أساساً (العالَم) كَمَسْرحٍ لطقوس التعرِّف هذه. ولم يكن لمعرفة أصيلة أن تقوم وتتأكد –على الوجه الأمثل- بدونِ انسجام وحُبٍّ بينَ هذي العناصر.

وعليه، لا سيما بعد أن طرحت مُدْخَلتي: مُدخلة (الإنسان المطلق) ومدخلة (نوع المعرفة)، فقد صارَ لِزَاماً أن أوضِّح لِمَ اخترتُ الإنسان المطلق ونوعية المعرفة على وجه التحديد، وإنْ كانت الإجابة مُنطوية في متنِ المُدْخلتين. فأولاً اخترتُ الإنسان المطلق على أساس أن الكائن البشري يحمل في بذرته الأساسية صفات الإطلاق، لذا ساعة يتعامل مع المعرفة نوعياً يكون قد احتواها على الإطلاق، ولكن تبقى إشكالية تشظّي هذا الكائن في الزمن والمكان: "أ" "ب" "ج" "علي" "جورج" "مردوخ" "كريستينا" "تشن تشو" "أليخاندرو"

"إيزابيلا" ؛ "حدَّاد" "نجَّار" "فيلسوف" "عامل نظافة" "غطّاس" "ربّان سفينة" "مجنون" "مجذوم" "طبيب" "واعظ" "عدَّاء" "روائي" "سائق" "راعٍ" "قصّاب" "ساحر" "مُخرج سينمائي" "مُمثّل" "فقيه" "مزارع" "صائد يرقات" ...الخ. فهذا التشظّي كانَ بمثابة ضرورة وجودية لكي يتم تقاسم كَمّ المعارف الهائل، حيث تعجز ذات مُجزأة، مُشظاة، مُشيأة عن الإلمام بـِ (كَمّ المعارف) كاملاً، بَيْدَ أنْ كمّ هذه المعارف الهائل يتجمّع كنوعيةٍ مُكثفة في بؤرة واحدةٍ: بؤرة الذات المطلقة، الإنسان على إطلاقه، ففي سويداء كُلٍّ مِنّا، في أقاصي ذاته، بذرة خالدة تتجمع على مشجبها نوعية خالصة من المعارف المُغربلة، المُنقّاة، حيث يصيرُ عارفاً على أكمل وجه.

فذاك الإنسان المُطْلَق، وإنْ كانَ قد تَشَظّى، إلا أنّهُ يعود ليتأكد حضوراً أنطولوجياً عبر معارف نوعية، كانت قد تَوَزَّعت عبر إنسان مُشَظّى مَسْرَح وجوده عبر وجودٍ ابتدأ أزلاً، إلا أنه بقي يحمل – هذا المُشَظّى – في بؤرة وجوده، سويداء قلبه، حقله المغناطيسي الداخلي، ذاكَ الإنسان المُطلق الذي يعرف أقانيم الوجود الأساسية: (الله) و(العالَم) و(الذات)، ويُلِمُّ بها وبإحداثياتها في الزمن والمكان أبداً.

إذن، بناءً على ما سبق، المعرفة بصيغتها الكمية مُحالة وممنوعة على (الذات) فـ (الذات) محصورة في نطاق زمني يبتدئ مع ميلادها وينتهي مع موتها، ونهر المعرفة لم يتوقف أبداً مُنْذُ بدء الخليقة، وأن يتوضّع هذا الكم الهائل من المعارف –المُنْتَج عبر مئات الآلاف من السنين– في (ذات) معينّة لا يعدو عمرها مئة أو بضع مئات من السنين، هو من باب الاستحالة الأنطولوجية والعقلية. لكن هذه (الذات) حوت بين جنبيها بذرةً إطلاقية، تمكنت عبرها من تبئير المعارف البشرية في بؤرة واحدة، وهناك حولتها إلى معارف نوعية استطاعت من خلالها مَوْضَعة ذاتها وتأكيد حضورها الأقنومي في العالَم.

الهوامش:

(1) مثلاً، علم الفلك والحساب والجبر والهندسة وأنواع الطيور وعلم البيئة والسلوك الجنائي والخيمياء والسحر والفيزياء النووية وعلم صناعة السيارات والغابات والأديان والميثيولوجيا والأنثروبولوجيا وعلم الجريمة والأدب والملاحم التاريخية وعلم الجينات وعلم النباتات والصحاري والحيوانات والزواحف واللواحم ... الخ.

(2) كُنتُ قد نشرتُ هذه المقالة مُجتزأة ومقتطعة عن سياقها الكُلّي في وقتٍ سابق، وقد أوردتها –هنا– كاملة لأهميتها ومناسبتها في موضوعتنا هَهُنا. الملحق الثقافي/جريدة الرأي الأردنية/ الجمعة 7-أيار-2010

(3) إنَّ فكرة الثراء الذي تنامى تِباعاً -سواء بالنسبة لبني البشر والأعداد الهائلة التي مرّت على هذا الكوكب منذ بدايات الوجود الإنساني أو بالنسبة لمحتويات هذا العالَم من حيوانات ونباتات وكواكب وشموس وأقمار وصناعات..الخ- لَمِمّا يحدُّ من غلواء الإنسان بالنسبة لأحاديته وأحقيته على حساب أحادية وأحقية الآخر، ففي النهاية التنوّع الإنساني والكوني أحد تجلّيات اللانهائي في هذا الوجود.

(*)إنَّ اشتغالاً إبمستولوجياً (داخل المنظومة العقلية الفردية والجمعية، سواء بسواء) على ثالوث: الله، العالَم والذات، لَمِمّا عمل ويعمل وسيعمل على إحداث إزاحة كبرى في النظرة الكلّية لهذا الوجود، بحيث يُجترأ على تغييره ونقل الحضارة من وضع استاتيكي ثابت إلى وضع ديناميكي متحرك. وبرأيي أنَّ هذه المفاهيم التأسيسية مطلب حضاري –لا سيما فيما يتعلق بالشرط الثقافي- بالنسبة للوجود العربي الإسلامي، لإحداث تلك الإزاحة الكبرى في الأذهان أولاً ومن ثمّ في الأعيان. ففيما يتعلّق بالمفاهيمية الإسلامية (وأنا هُنا إذ أُقارِب فإني أقارب مقاربة مُجتزأة، لأنَّ السياق لا يحتمل أكثر من ذلك، في حين أني أشتغل على هذه الأطر ضمن سياق ثانٍ) حول الله – وإنْ كانت تنطلق من مُنطلقات لاهوتية- لا تعدو أن تكون محض أُطر قديمة ولا تنفع لإنسان العصور الحديثة، فلا زال المخيال حافلاً بصورة الله الغاضب لغضب المسلم والواقف على أهبة الاستعداد للدفاع عنه والذود عن حماه بمجرد استدعائه بالدعاء، وفيما يتعلّق بالذات فأعتقد أن ثمة استخفاف كبير بالذات العربية الإسلامية، إذ يُنظر إليها كذاتٍ مُنفعلة غير فاعلة، ولربما تجلّى هذا الاستحقاق المأساوي أكثر ما تجلّى لدى المثقفين، فالذات العربية المسلمة المُنتجة للمعرفة –على سبيل المثال- أقلّ احتراماً من مثيلتها الغربية، لذا من السهل أن نجد وصفاً كبيراً كـ (فيلسوف) يُطلق على مفكّر غربي، في حين يُبخَل بذلك على مُفكّر عربي، وإذا كان لي أن أعزو هذا –من ضمن ما أعزوه- فإني أعزوه إلى ذات جمعية مُستلبَة، مُنتهكَة، مُباحَة وهذه المرة بأدوات ذاتية. أما فيما يتعلّق بالعالَم فأعتقد أن الذات العربية الإسلامية تقف موقفاً مُتخاصماً مع العالَم، وأنا لا أعني بالعالَم هَهُنا، الآخر الإنسي، إنما أيضاً المنظومة الطبيعية بكامل تفاصيلها وحيواتها، بما أشْكَلَ علينا وجعلنا نجنح للسلب أثناء تعاملاتنا مع هذا الثراء العالمي العظيم، فالانحياز للصغير جعل نتاجاتنا تتصاغر وتأخذ طابعاً وطنياً ضيقاً يعجز في أغلبيته عن خلق فضاء لا متناهٍ لإبداعيته.

وهنا أشير مرة أخرى إلى أني أشتغل على هذه المحاور، بما يستلهم رؤى جديدة يمكنها إحداث إزاحة في منظومتنا الوجودية ككل.

(**) أمكنني –هَهُنا- التغاضي عن ظاهر العيان البشري والحفر عميقاً في ما وراءه، من حيث إن الإنسان –حتى ذلك الرافض لوجود الله رفضاً كاملاً- يسعى إلى أنْ يكون إلهاً بطريقةٍ أو بأخرى، ولربما شكّلَ الإنسان المُطْلَق في تكتلّه الهائل قوة جبّارة تستلهم –في باطنها وقواها المُتوارية- قوة الله العاتية.

(4) يمكن معاينة كتاب (عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة) لمؤلِفه "جان ماري بيلت"، سلسلة عالَم المعرفة، ترجمة السيد محمد عثمان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 21، 1994

(5) ثمةَ إحالة إلى ديوان الحلاج.

وأنا إذ أحيلُ فإنّي لا أتبنَّى ثقافة غنوصية أو عرفانية، ولكني أؤمن بالامتداد –أولاً- اللانهائي للإنسان من حيث هو كائن هائل ولا يمكن له في نهاية المطاف أن يقبل بأقل من تمثّل اللانهائي. وأؤمن ثانياً بعدم الركون إلى ثقافةٍ بعينها دون الأخرى، فالوجود الإنساني ضمن سياقه الملحمي أثبتَ عبر تجربته الروحية والتاريخية أنه كائن تعدّدي يتنامى وجوداً إبداعياً بقدر انفتاحه على كافة الخيارات الإنسانية، وعدم حصر ذاته في إطار واحد يحدّ من عظمته ولا نهائيته.

(5أ) بشأن المقطوعات الشِعرية التي أوردها في هذا الدراسة سأتركها كما هي دونما فكّ أو تأويل بما يُخْرِج الموضوع عن سياقاته. إلا أني أشير إلى نقطة أراها ذات أهمية في هذا المجال، متمثلة بضرورة اندماج السياقات الثقافية مع بعضها البعض لتحقيق غايتين أشير إليهما في هذه الدراسة عرضاً على أن أعود إلى ذلك في أطروحات قادمة، وهما: أولاً من أجل خلق فضاء علائقي بين المعارف المختلفة وخلق أفق تشابكي بينهما بحيث لا يعود ثمة عزلة بين العلوم والمعارف، لا سيما فيما يتعلق بالعلوم الإنسانية والاجتماعية وفتح فضاءاتها بعضاً على بعض بهدف الاستفادة منها في خلق بديل ثقافي يُنافِس على مستوى الحضارات. وثانياً لغاية تفتيت الخطاب الثقافي ونقله من مرحلة التعقيد والتراكيب (خصوصاً في العلوم الفلسفية والفكرية) إلى مرحلة البساطة والأريحية، بحيث لا يعود الخطاب الثقافي محصوراً في جماجم النخب، بل يتعداه إلى الجمجمة الجمعية.

(6) مع القفزة الكمومية، فريد الآن وولف، ترجمة أدهم السمان، دار طلاس، دمشق، ص 24، ط1، 1994

(7) الله والإنسان، كارين آرمسترونغ، ترجمة محمد الجورا، دار الحصاد، دمشق، ص 108، ط1، 1996

(8) مقطع من قصيدة (الطريق) للشاعر "تركي عبد الغني". والقصيدة من مخطوط ديوانه (حقائب الطين) الذي سيصدر قريباً في تونس.

(9) الدين والعقل الحديث، ولتر ستيس، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ص 265–266، ط 3، 2009

هُنا لا يجب أن لا يغيب عن بالنا الروح الإنسانية العالية عندَ ابن عربي، لا سيما في أبياته الهائلة:

لقد صارَ قلبي قابلاً كُلَّ صورةٍ *** فَمَرعى لغزلانٍ ودَيرٌ لرهبانِ
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ *** وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدينِ الحبِّ أنَّى توجهتُ *** ركائبي، والحبُّ ديني وإيماني

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com